أمام المذابح المرتكبة في غزة والقتل الملاحق لشباب الضفة والاضطهاد الواقع على كل الفلسطينيين على أرضهم، وأمام المشاهد والأخبار المروعة عن عذابات الناجين من المذابح بأجسادهم والمتأثرين على كل الأصعدة، مثل فقد الأحبة الذي قد يدفع الإنسان في الدولة المرفهة إلى الاكتئاب، فما بالك بأثره وقد تكالب مع ذلك الفقد نوع آخر وهو فقد أبسط مقومات الحياة. أمام أخبار الأسرى الفلسطينيين التي تقشعر لها الأبدان وتبكي الحجر، وفي خضم تجاهل المنظمات الدولية والحكومات لكل ذلك وتضييقهم على أي فلسطيني في الخارج وغيرهم إذا حاولوا نصرة إخوانهم. لم يعد من الممكن لأي إنسان سوي أن يقبل العيش في عالم ظالم كهذا. لقد امتدت ظلال هذا الكم من الإجرام لتلفت العالم أجمع، وأثبتت الكثير من النشاطات السياسية والحراكية أنها ليست قادرة على وقف شلال الدماء، مما يجبر الإنسان السوي في أي مكان على التفكر ملياً بطبيعة هذا العالم وكيف يمكن له أن يغيره بشكل جذري وفعّال وعدم الاكتفاء بأنصاف الحلول.

هي مسألة تشمل أي إنسان سوي له من الكرامة والأخلاق ما يكفي لرفض العيش في عالم كهذا، وهي أيضاً مسألة تخص الفلسطيني في الشتات بشكل مباشر، كيف لا وهو من نسل الفلسطينيين الذين ذاقوا المر على يدي العدو ذاته واضطروا للنزوح ومنعهم هذا العدو من العودة إلى أرضهم ومنعهم نفوذه الضارب في أحشاء الدول العربية سياسياً واقتصادياً من التحرك لنصرة إخوانهم. كما اضطر الفلسطيني من غزة إلى النزوح أو وجد نفسه عالقاً في الخارج ليصبح هو الآخر دون نية شتاتاً إلى أجل نرجو ألا يطول. بسبب خصوصية الأسئلة للفلسطيني لا يعقل أن يستمر بحياته مطبعاً لهيئة العالم الحالية أو منتظراً أجوبة يخطها الغرباء وما أغرب العرب المطبعين اليوم، حتى لو قرر سائر البشر تحت أي عذر أنهم مستعدون لتقبل عالم لا قيمة فيه لحياة الفلسطيني يستحيل على الفلسطيني أن يقبل عالماً كهذا. هو مجبور إذاً على أن يغير نظرته ونشاطاته، ويدرك تمام الإدراك أن المسألة لا تعنينا فقط على المستوى الأخلاقي أو الفكري المجرد، وإنما بشكل مباشر وحرفي، فالفلسطيني حتى لو نجا من القصف المباشر لن ينجو من عالم تظفر فيه الصهيونية ويكون لها الكلمة الأخيرة، لتذهب تضحياته في مهب الريح ويزوّر التاريخ لتصبح كلمة فلسطيني مقترنة بالفظاعات التي من الأنسب والأدق أن تقترن بالصهيونية. في عالم كذلك ستتم سائر البشرية مهمة القضاء على الفلسطيني عبر كل أنواع الظلم، السياسي والاجتماعي خصوصاً، دون أي محاسبة أو مراجعة. لكل هذا وجب على الفلسطيني أن يصبح بنفسه قاضياً ومنفذاً لكل الأحكام كي يعيد رمقاً من العدل إلى هذا العالم.

لذلك على الفلسطيني في كل مكان أن يجيب على أسئلة فكرية وعملية وأخلاقية بعد أن تأكد له خواء الأجوبة السابقة وتكشّف له قبح الواقع ومقدار الكذب والغدر الذي تعرض له وأوصله إلى هذه المرحلة، كي نطرح تلك الأسئلة الجديرة بالإجابة علينا أولاً أن نسقط الإطار السابق من الأفكار التي تستحضر أسئلة مزيفة أشبه بالرنجة الحمراء، ولفعل ذلك علينا أن نرفض تأطير المسألة كلها كما لو أن عالم ما بعد الطوفان هو عالم ما قبله. ولقد سعيت إلى ذلك في عدة مقالات كانت ضرورية في حينها، ذات الضرورة تقتضي أن أطرح الأسئلة بشكل مباشر في هذه السلسلة. أدعو القارئ إلى الاطلاع على ما سبق من مقالات وخصوصاً مقالة "الأمل بين العمل والشلل" التي أظن أنها ما زالت تجيب على بعض التساؤلات العملية بشكل عام ومقالة "واجب الثأر وحق العودة" التي يمكن اعتبارها متطلباً سابقاً لهذه المقالة. بينما تتعاطى المقالة بين يديك مع سؤال حصرية القضية وتحاول البت فيه بناء على ما سبق.

مضيعة الوقت قبل الطوفان

قبل الطوفان كانت هناك العديد من الأسئلة المشتتة التي يتعرض لها الفلسطيني، ولم تكن تطرح أصلاً على شكل أسئلة وإنما اتهامات أو مناكفات لكننا سنعيد صياغتها كأسئلة، مثلاً اضطر للإجابة مراراً وتكراراً على سؤال يتعلق بوزن دمه وثمنه، وأنه ليس أغلى من دم شعوب ثانية. وكان عليه إجابة تساؤلات عن قضيته ومركزيتها وفي الوقت ذاته قيل له أنها قضية إسلامية ولا يجوز أن يحتكرها. وما يزال المؤثرون يخرجون في المقالات والمقابلات ليخبرونا بأنها كذلك على الرغم من عدم وجود تحرك حقيقي من أمة ملياردية العدد بشكل يتميز عن تحرك الأحرار من خارج هذه الأمة. بعد مرور أشهر على بدء المجازر تحوّلت العديد من حسابات أولئك الذين انتهزوا كل فرصة على مدة عقدٍ للانتقاص من قيمة الدم الفلسطيني والطعن في أسراه وشهدائه وفصائله، إلى حالتها العادية تتحدث كأن الإبادة توقفت.

هذه المقالة ليست معنية بأولئك الأشخاص بقدر ما هي تخاطب الفلسطيني الذي أضاع وقته في التعاطي معهم، وربما خصوصاً الفلسطيني الساذج الذي ظنّ أنه عندما يتخلى عن شيءٍ من قضيته ويبخس من قيمة دمه فهو قد أجاب نموذجياً ونال نجمة على جبينه، وظن أن الرضا على مواقع التواصل هو المؤشر على صحة وأخلاقية الإجابة دون التنبه إلى أن هذا العالم المستهتر بدمه ستستشري فيه آراء مجحفة بحقه لا ينم رواجها عن صحتها، ودون أن يتنبه للحاجة الماسة بالحذر من الانجرار وراءها. من هؤلاء من يندب حظه الآن ومنهم من يتخبط في تقبل وقائع تكسر سرديات طغت قبل الطوفان عبر البروباغندا والبلطجة، ومنهم من بات يعيد النظر بكل الوقت الضائع مسبقاً، وحتى لو قرأ هذه السطور فلسطيني لم يتنازل لإرضاء الجماعات التي تحاول تذويب قضيته فهو أيضاً لم يسلم من مضيعة الوقت، فهو الآخر قضى السنوات في الردود على تلك الأسئلة والالتهاء بقضايا ثانوية متناسياً قضيته أو مجبراً على نسيان تفاصيلها.

على أرض الواقع تُرك الفلسطيني ليُذبَح في فلسطين أو ليجبر على السكوت والخنوع وعدم التحرك لنصرة أهله من خارجها، هذا الجبر يأتي بدرجة أولى من الحكومات وبدرجة ثانية من الشعوب التي ما زالت تقول للفلسطيني بأن عليه الاستسلام لليأس وخفض صوته كي لا يُسجن وينسى كما تتناسى هذه الشعوب معتقليها بل وتتطاول عليهم لأنهم تجرأوا على حكوماتهم.

بخصوص موازين الدم نستطيع أخيراً تجاهل الاتهامات بعد أن أثبت من اتهمنا بتزكية دمائنا أنهم يعتبرون دمنا أرخص من دماء الشعوب الأخرى، ودليل ذلك تحليقهم إلى مناطق النزاع تلك للاقتتال أما عندما عادت أرضنا إلى عادتها في الشهادة على دم الشهداء مما يستدعي جحافل المجاهدين صارت أقصى تضحيات الأشقاء العرب المقاطعة الاستهلاكية، وحتى هذا القرار لم يجمعوا عليه بعد عشرة شهور من المجازر. سعيهم الجهيد للحفاظ على الأمن في دولهم وعدم نزول قطرة دم واحدة لنصرة أهلنا لم يكن كافياً لترخيص دمنا بل باتوا يرخصون دم أي شخص يحاول نصرتنا، من إخوة دخلوا الحرب من اليوم الأول دون مقابل، وباتوا يقللون من تضحياتهم ويشككون في نواياهم متجاهلين دور حكوماتهم المطبعة في ردع الإخوة وإضعاف موقفهم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً.

أما بما يخص إسلامية القضية لاحظ أن الزعم يضع وزر الأجابة على الأمة بأكملها، ولا أنكر أن هناك أسئلة يجب إجابتها من قبل الفلسطينيين بصفتهم مسلمين لكن لا أدري لماذا قد ينتظر مليارا مسلم الحصول على الإجابات من أكثر فئة مستضعفة منهم، لماذا لم تنجب الدول المتقدمة اقتصادياً والآمنة عسكرياً مفكرين قادرين على التعامل مع "قضايا الأمة"؟. على أي حال ما حصل ويحصل الآن سواء عن خباثة أو جهالة أو من محض الشعور بالتقصير هو لوم الشتات بشكل حصري في بعض الأحيان، سواء من غير الفلسطينيين أو من الفلسطينيين في الداخل أو من أنفسهم. يأتي اللوم كأن الفلسطيني في السابق كان يتعامل مع القضية كأنها قضية حصرية وأثبت الطوفان فشله لوحده، ولا صحة في هذا بتاتاً، فلو أخذت عينة عشوائية من فلسطينيي الشتات قبل الطوفان فأغلب الظن أنك ستجد إيماناً منهم بأنها قضية للجمع الكبير، ويؤمن الفلسطيني بأن حلها يأتي مع إجابات من هذا الجمع، وما حصل في ساعة الحقيقة هو أن هذه الأمة رفعت يدها وتُرك الفلسطيني وحيداً يقتل في غزة والضفة ويظلم في كل العالم، وصار الفلسطيني في الشتات يُسأل -أو يسأل نفسه- عما قدمه بصفته الحصرية ويُعاتَب -أو يعاتب نفسه- بناء على توقعات غريبة تنافي التاريخ القريب.

الفارق الشاسع بين سؤاله لنفسه وسؤال المتخاذلين والمتآمرين له يتطلب تفصيلاً، أما الجبناء والخونة الذين يرمون هذا السؤال فهم في المجمل لا يكترثون حقاً بالقضية ولا بالدم، ولو امتد النقاش مع أيٍ منهم سيسقط قناع الاكتراث وتنمو السُلُف وينعقف الأنف، هذا اللوم يجب أن يؤكد للفلسطيني في الشتات مدى الخداع الذي مارسه هؤلاء وكم أضاعوا من وقته وجهوده التي كان من الأجدر أن يصبها في قضيته. أما سؤاله لنفسه وهو الأحق بالإجابة فهو ناتج عن شعور الفلسطيني في الشتات بالذنب يعتصر قلبه، خصوصاً لو لم يتهرب بالإجابات التي زيّفها الجبناء في دائرة الغثاء الكبيرة، أجوبة على شاكلة "لا يمكننا فعل أكثر من المقاطعة" و"الحل هو في صلاح الأمة". ربما هو ذنب الناجي الذي تسلل عبر الأجيال، أو هو الاكتشاف الصادم لحقيقة أنه أخطأ التقدير، والخطأ بالتقدير ربما لم يكن عن غفلة وإنما بسبب حجم الخداع والتآمر، وربما هو مزيج من ذلك ومن عوامل أخرى يجب أن ندركها بسرعة لنتدارك خطورتها. لكن مهما كان السبب فلا شك بأن شيئاً من اللوم يقع على الفلسطيني في الشتات، وهذا المزيج من اللوم الخارجي وتأنيب الضمير من الداخل يجب أن يترجم بسلامة فكرية وأخلاقية إلى خطوات عملية كي ينتفع منها أبناء الشعب في كل مكان، لأن عكس ذلك، المتمثل إما بالاستمرار بالتنكر لوجودية المعركة أو الاكتفاء بالبكاء على "خذلاننا" لمن هم في الداخل لا يفيدهم ولا يفيدنا وإنما يرسخ الخذلان.

للمعالجة السليمة وللتأطير السليم يجب أولاً أن يحسم الفلسطيني السؤال عن حصرية القضية، ولا داعي لأن تكون الإجابة ثنائية فحسب، أي لا داعي لأن يجيب الفلسطيني بالتعامل مع قضيته إما كأنها كذا أو فلسطينية فحسب، كونها فلسطينية بحتة لا يتعارض مع كونها إنسانية أو إسلامية مثلاً، ولا يتعارض مع كونها قومية أيضاً بل إن الهدف الأخير وهو إقامة دولة فلسطينية هو هدف قومي صرف في سياق القوميات المعاصر والاستهزاء به ينم عن ذوبان العقول الفلسطينية في دوائر فكرية عجيبة. لذلك هدف هذا الجزء من سلسلة المقالات هو المرور على هذه الفكرة (إسلامية القضية) بينما يتعلق الجزء القادم بطبيعة الهوية الفلسطينية، كي تتضح معالم الإطار الجديد من الأسئلة التي على الفلسطيني أن يجيبها.

لأجل الفائدة سأركز في أجزاء لاحقة على سؤال الشتات الفلسطيني في الأردن، لأن طبيعة الأسئلة المطروحة على الفلسطيني في مواقع جغرافية مختلفة تختلف وفق الموقع مع اتفاقها كلها على هدف موحد. وقد اتضح اليوم دون أدنى شك أن هذا الهدف هو إقامة دولة فلسطينية عبر استخدام ترسانة أسلحة أهمها البنادق والصواريخ ولكنها تشمل أيضاً الإعلام والسياسة والمعارك الحقوقية والقانونية. الإجابات ضرورية كي لا يعاني الفلسطينيون من كل هذه العذابات وهو ينتظر حلاً من العالم الذي لا يكترث بدمه. هذا الهدف لم يعد يتقبل بقاء الكيان الصهيوني بتاتاً، وإذا تحدثنا عن الشتات لا يعقل تجاهل أكبر تجمع لهم وأقربه إلى الأرض المقدسة. هذا لا يعني بالضرورة حجب المقال عن غير الفلسطيني أو عن الفلسطيني خارج الأردن، بالعكس أظن أن الفلسطيني في أي موقع جغرافي خارج فلسطين عليه أن يفكر بأسئلة شبيهة، ولو توفقت لإكمال السلسلة ستأتي أجزاء تدعو الأردني إلى أن يفكر بأسئلة قريبة ومتطابقة.

حول إسلامية القضية

بداية يمكننا معالجة الجملة بصياغتها الكاملة، عندما يقول أحدنا أن القضية الفلسطينية هي قضية إسلامية، أي أنها قضية من المجموعة (set) الإسلامية، وقبل أن نخوض في التصنيف نستطيع الإقرار بأن تصنيفها في هذه المجموعة أو نفي ذلك هو منطقي. في المقابل ليس منطقياً أن يقول أحدهم أن "القضية الفلسطينية هي ليست قضية فلسطينية"، على الرغم من بدهية الجملة بهذه الصياغة إلا أن الكثيرين، ومنهم الفلسطينيون، بعد خوضهم في الجدال حول التصنيف ينسون هذه البدهية مما تطلب ذكرها. هذا التناسي يحصل عن طريق الخطأ في معظم الأحيان، ففي لهفة الفلسطيني للتوحد مع مجموعات أكبر يظن أن عليه التحقير من هويته أو من فكرة الدولة الحديثة أو من الحدود، وكأنها أمور ثانوية، وقد بينت في سلسلة "الطواف" سخافة التهجم على هذه الأفكار في الوعي العربي المعاصر. باختصار، يمكنك أن تنزع الجانب الإسلامي من القضية لكن من المستحيل أن تنزع الجانب الفلسطيني، ومن هذا نتحقق من أن الجوهر الفلسطيني هو المبتدأ الصحيح.

بالطبع لا يجوز الفصل المطلق بين "فلسطينية" القضية و"إسلاميتها" منطقياً، لأن الأغلبية من أعضاء المجموعة يقعون في التقاطع بين دائرة المسلمين ودائرة الفلسطينيين، ومن الطبيعي أن تكون هناك خصائص مشتركة وتغلب هذه الخصائص على شكل القضية. وكما أن الفصل المطلق لا يجوز أيضاً لا تجوز المبالغة في الفصل أو التعامل مع السؤال عن إسلامية القضية كأنه سؤال ينحصر بإجابة نعم أو لا. لذلك أزعم أن الخلل الأساسي في كل النقاشات حول إسلامية القضية هو في التعريف لما يمكن اعتباره "قضية إسلامية".

لاستيعاب هذه النقطة أدعو القارئ ليفكر بقضايا لا تمت للسياسة بشيء مما يمكننا التعامل معها دون حدية في النقاش، ومنها القضايا البيئية، وهي قضايا لا تجد من المسلمين حمية في التعامل معها بل يبالغ المسلمون في اعتبارها مشاكل تقتصر على العالم الأول، سواء بمعنى أن العالم الأول سببها أو بافتراض ضمني بأن حلها أيضاً هو مسؤولية العالم الأول ولا داعي للحديث عنها. وكأننا لسنا معنيين بالإجابة عن هذه القضايا مع أنها هي الأخرى ترتبط بمفاهيم إسلامية مثل استخلاف الأرض وما يحمله من مسؤولية، وعن مفاهيم مثل حرمة الإسراف، وصولاً إلى أخلاقيات التعامل مع الحيوانات، والأهم من كل ذلك هذه قضية تحدد مصيراً واحداً للكرة الأرضية لا فرار منه وفق المواقف الأخلاقية ومن هم "أصحاب الحق". لكن لسببٍ ما عندما نشير إلى القضايا البيئية يتبادر إلى الذهن ناشطون غير مسلمين[1]، ونجد عند المسلمين شكاً في بعض النظريات مثل الاحتباس الحراري مثلاً، كما تندر أو تنعدم النقاشات الدينية حول أحد الطرق الشائعة لتربية الحيوانات المكثفة كأنهم جمادات مصنعة. ويتعارض هذا التجاهل مع إصرار المسلمين على أن الدين الإسلامي هو نظام كامل يشمل كل تفاصيل الحياة، هذا الشمول إن صح فهو بالضرورة يعني أن كل القضايا قد تكون إسلامية، حتى تلك المظاهر الثقافية التي ينكرها الشيوخ في دول غربية، فلو أعدت صياغتها تجد أنها مشمولة أيضاً.

لنأخذ خطوة بعيداً عن القضايا التي قرر رجال الدين أنها ليست من شأنهم مع أنها من شأن البشرية أجمع أو حاولوا التهرب من التعامل معها بشكل مباشر واكتفوا بملاكمة ظلال العالم الغربي. لنعاين تلك القضايا التي تُهِمُّ رجال الدين حتى في أكثر الظروف سواداً، مثل الحقوق الإنسانية في صيغتها الغربية، انظر كيف أمطروا بقنواتهم ومقالاتهم الأقاويل للإشارة إلى زيف هذه الحقوق أثناء الحرب على غزة، إلى حد قد يبدو للمراقب من بعيد وكأن همهم الأساسي هو الانتصار في معاركهم الثقافية وليس نصرة المظلومين المسلمين في فلسطين، وإذا بالغنا قليلاً يمكن أن نقول بأنهم قد فرحوا بهذه الحرب لأنها تجرّم العالم الغربي وتساعد شيوخ اليوتيوب في مشاريعهم وبسط نفوذهم لتلبية غايات تبتعد كثيراً عن القضية الفلسطينية. هذا اللؤم والتقليل من الدم الفلسطيني دفع البعض إلى طرح أسئلة مليئة مثل إسلام الجنود اليهود، أي أنهم حتى في خيالاتهم لم يرسموا احتمالات للتحرير أو السند وإنما للإمعان في قهر الفلسطيني والتطبيع مع قاتله. وكل هذا الفرح بالسقوط المدوي -في نظرهم- للعالم الغربي -الذي يعيش الكثير منهم فيه- ليس ممكناً دون تجاهل أن هذه الحرب تجرّم العالم الإسلامي أيضاً، بل ربما تُسقِط الكثير من ادعاءاتهم من مسافات أعلى، إذ لو أننا سلمنا بكلامهم قبل الطوفان فهذا الغرب الكافر هو عدو يشن حرباً على الإسلام وبالتالي لا عتب عليه، لماذا كانت هناك آمال معقودة عليه أصلاً ليكثروا الحديث عن سقوطها. أما الادعاءات الإسلاموية لم تفسر لماذا يساهم المسلمون أنفسهم في شن هذه الحرب المتخيلة أو لماذا لا يساهمون جدياً بوقف الحرب الواقعة، الجديد فعلاً هو أنهم هم أنفسهم باتوا يعملون ضد القضية، كم من مجاهد على الإنترنت تحوّل إلى مواطن علماني صالح صار أكثر حرصاً على احترام القوانين البشرية وتنكراً للفطرة السليمة التي حركت غير المسلمين ولم تحركه مع أنه ادعى احتكارها سابقاً.

دور الشيوخ في هذه الحرب يشبه كثيراً دور المؤثرين الغربيين أنفسهم، وقد تجد ارتباطاً مباشراً في الحجج واعتماداً على آراء أصحاب هذا الصراع الثقافي في السياق الغربي والاصطفاف مع المحافظين في الدول الغربية. هذه الملاحظة لا تأخذ حقها عند التحليل لأن أغلب المحللين أنفسهم يغوصون في الحرب الثقافية الغربية. بغض النظر عن الآراء حول الحقوق بمفهومها الغربي يمكننا التدقيق على المقصد من دحضها، لأن رجال الدين أثبتوا من خلال سلوكهم أن تقريع الأنظمة الأخلاقية الغربية هي الأولوية، فإذا أخذنا هذه الملاحظة دليلاً على أن مقارعة النظام الأخلاقي الغربي هي قضية إسلامية أيضاً، نكتشف أن تعريف القضايا الإسلامية يقل وضوحاً كلما تعمقت أكثر في أحاديث الزاعمين بأنها قضاياهم الأساسية. أو ربما وصلنا إلى استنتاج أكثر ظلامية، مثل أن الاهتمام المفرط بهذه القضايا والحرص على الخوض فيها هو اهتمام يوتيوبي بالدرجة الأولى، وأن هؤلاء الرجال بعد أن يلتف حولهم الكثيرون من الشباب الصادق والسوي والراغب في إصلاح الأمة أو العالم، ينتهي بهم المطاف مثل أي جمهور لأي مؤثر على اختلاف مستويات التفاهة. مع التوهم بالجدية

وهو وهم لأنه لا ينعكس على الواقع بقرارات جذرية، وإنما يترجم إلى أنماط استهلاكية مختلفة، سواء الاستهلاك الاقتصادي أو الترفيهي، والتعامل مع التاريخ الإسلامي كما يتعامل متابعون الأفلام الخيالية مع العوالم تلك، ونجد أن الاختلاف الوحيد بين أولئك المتمسكين بحضارات قديمة مثل الفرعونية أو الفينيقية وبين المسلمين المتمسكين بالتاريخ الإسلامي هو اختلاف عددي، أما سلوكياً فهم إلى حد كبير سواء.

على الصعيد اليومي فهم مثل غيرهم من خصومهم يعملون على تثبيت أركان النظام العالمي الظالم الذي يسمح لكل هذه التجاوزات، كما نلاحظ عندما تطلب الأمر تحركات شجاعة أنهم أول المثبطين، أولاً بإدخال متابعيهم في دوامات نقاشية لا تفضي إلى حراك حقيقي مما يعني أننا أيضاً مضطرون لتضييع الوقت فيها، وثانياً في عملية تسويف تتجاهل العداد الزمني الذي اقترب إلى النفاد في بعض الحالات مثل حالة الشيوخ السعوديين الذين كان بين يديهم ما يقارب القرن وهم الأقرب إلى ملوك يملكون أثرى الموارد وأهم المقدسات، لقد اجتمعت لديهم السلطة الدينية على العالم الإسلامي مع السطوة الاقتصادية، ماذا كانت حصيلة هذا القرب وعن سلطتهم فيما أنفقوها؟ ألم يبددوها في التبعية لأوامر الحكام بدلاً من ترسيخ حاضنة تؤمن بأقوالهم وفي شحن الشعوب الأخرى ضد حكوماتها مع تدجين شعبهم؟ وها هم الآن في السجون أو يتحدثون على حياء عندما يتعلق الأمر بالسياسة دون رائحة تحرك من الشعب الذين كانوا سادته، وكيف للدجاج أن يُخرجهم من السجون؟ وكيف لنا أن نتأمل بهذه المشاريع بعد أن فشلت وهي في القمة وسقطت سقطة من علو شاهق كهذا؟ وهل هناك أي دليل مرحلي على النجاح سوى ما يمكن أن يزعمه أي مؤثر على مواقع التواصل الاجتماعي من كثرة المتابعين أو رسائل المعجبين؟ فكيف لأي عاقل من بلاد الشام أن يعوّل على أي مشروع من أمثال هؤلاء وهم في أضعف حالة بعد أن ساهموا في تدمير بلادنا عندما كانوا في أرفع المناصب؟

ما سبق ليس التفافة بسيطة، بل هي ضرورية كي يدرك الفلسطيني أن الأمل ليس في أمثال هؤلاء إلا إذا بدلوا أحوالهم وأثبتوا ذلك هم وأتباعهم، لكن إلى أن يحين ذلك الوقت على الفلسطيني أن يدرك أن النظام العالمي الظالم هو مزيج من كل الأنظمة القمعية وأنه سيضيع الكثير من وقته إن لم يركز على محيطه المباشر وارتجى الحلول من أمثال هؤلاء أو من غيرهم مثل اليساري الذي يزعم أنها مشكلة عنصرية الرجل الأبيض (وقد تحدثت أكثر عن هذه النقطة في هذه المقالة) أو يلجأ إلى ماركسية عليها من الغبار والقروض ما عليها.

أخيراً يمكن القول دون بتر الجوهر الفلسطيني عن الخاصية الإسلامية أن الإجابة عن القضايا الإسلامية هي مهمة الأمة كمجموعة كبيرة وإذا اعتبر المسلم القضية الفلسطينية قضيته عليه أن يعطيها حقها من الإجابة، لا أن يسقط القناع عندما يرى ما لا يعجبه من الفلسطينيين، كم شيخ وكم تابع لهم تكالبوا على الفلسطيني وباتوا يطعنون في عقيدة أهل غزة ويرمون الفلسطينيين بتهمة "عبادة القضية"، وهي تهمة تستحق ملحقاً خاصاً لتفنيدها وبيان سفاهة القائلين بها. وكذلك لا يمكن للزاعم بأنها قضية إسلامية أن يُحمّل الفلسطيني حمولة استثنائية دون أن يعترف باستثنائية موقعهم من القضية. فإذا رفض الحالة الاستثنائية عليه أن يرد على محصلة الأفكار التي طرحتها هنا وفي مقالات عدة لتفنيد التعريف الباطل لإسلامية القضية، وإذا ارتضى فنحن على وفاق والخطوة القادمة هو الدخول في تفاصيل عملية أدق.

في المقابل يمكن للفلسطيني أن يفكر بإسلامية القضية بطريقة فعالة بدلاً من الاعتماد على هذه الخاصية لتبرير التسويف، التسويف الإسلامي الذي يجعل من حل القضية مسألة منوطة بحلول عملاقة أو ربما ظروف خارقة مثل انتهاء الزمان كله، مثل قدوم المهدي في صورتها القاسية أو الصور الأنعم التي تعتمد أحياناً على تعريفات هلامية مثل "صلاح الأمة" والوصفة المنسوخة من تجربة تاريخية بعيدة. إن تطلبت القضية فعلاً حلاً عملاقاً فعلى الفلسطيني المؤمن بإسلامية القضية أن يبادر بتقديم هذا الحل دون أن يتنكر لفلسطينيته، أي دون أن يتعجرف ويتصرف ويتحدث كما لو أنها قضية ثانوية وهو يتبع للدائرة الأكبر. لأنه إن فعل ذلك فقد أسقط عن نفسه تلك الحمولة الاستثنائية وخدع قومه. بصياغة مختصرة قد ترضي المؤمنين بإسلامية القضية بصورتها الحالية، على الفلسطيني أن يدرك أن القضية الفلسطينية هي ثغره الأول والأخير، وأنه يخون الأمانة إذا ترك الثغر وذهب ليقاتل في غيره، وعليه أثناء هذه الحرب وبعدها أن يعيد النظر بكل الجهود التي بذلها في نصرة الثغور كلها، أو في وهم نصرتها، وكيف تكاتفت الظروف ليترك وحيداً في ثغره.

كلمة أخيرة عن إسلامية القضية

نظراً لتدني القدرات العقلية الظاهر على مواقع التواصل الاجتماعي ولأن بعض المنكرين لرأي المقالة يتعطشون لدماء المسلم المخالف أكثر من رغبتهم بإرهاق قطرة دم صهيونية حتى بعد أن تغوّلت على أبناء الأمة التي يزعمون أنهم ينتمون لها، يجب أن أوضّح الرأي بشكل صريح ومباشر في حال وصول أي منهم لهذه المقالة. أما من هم أذكى من الحاجة لقراءة التلخيص فلديهم الفرصة الآن لبناء فكرٍ أكثر رصانة بما يتعلق بهذا المفهوم.

لقد انتقدت هذا التعريف لإسلامية القضية في عدة مواضع، أولاً في مقالة "عمى الأنوان" وثم في أجزاء من سلسلة "الطواف في فلك الواقع"، ومؤخراً هنا. الانتقاد يعتمد على عدة مسارب، أهمها هو أن المتمسكين بهذا الرأي لم يفعلوا شيئاً لإيقاف المجزرة يميزهم عن أي مخالف لهم أولاً، وهذا يعيبهم ولا يعيب القائل بأنها تتبع لدائرة إنسانية أو عادلة أشمل لأن ذلك الزعم على الأقل يساوي بين المناصرين. وثانياً أنهم صاروا أسفل من المناصرين أولئك واختاروا الطعن المباشر وغير المباشر بالمقاومة الإسلامية وقت الشدة، وستزداد طعناتهم كلما زادت ظلمة الأحداث. بقية الانتقاد الذي طرحته يتعرض للتعريف كما في هذه المقالة، ويوضح التناقضات كما في مقالة الأنوان التي تحاصر الردود المرتقبة أيضاً، وفي سلسلة الطواف أشرت إلى ملامح أفول هذا المفهوم وحاجة أصحابه لترقيعه.

لذلك الكلام هنا يخاطب الفلسطيني نفسه وينبهه من أولئك السارقين لقضيته أو المارقين عليها والطاعنين في عقيدته، ويحثّه على التفكر الوجودي بمكانته في عالم مظلم كهذا. كل هذا يعني أن نقدي مهما كان لاذعاً فهو لا ينفي أهمية الجانب الإسلامي في القضية ولا يقلل منه بتاتاً.

قد يسأل أحدهم لماذا البدء بهذه المسألة على وجه التحديد، الإجابة هي لأنني أظن أن الذوبان في الأمة الوهمية كان من أكثر العوامل تثبيطاً للتحرك على الأساس الفلسطيني. حتى في معركة سيف القدس كان الفلسطينيون في الأردن وخصوصاً المنتسبين مباشرة أو المائلين إلى حزب الإخوان أو أي تيار إسلامي يأخذون حقيقة أن حماس حركة إسلامية لا لنصرتها أو إسنادها بأي صورة وإنما للمناكفة مع خصوم سياسيين أو لاختلاس مجد إنجازاتها وصمودها. لذلك من المنطقي أن يبدأ النقاش مع مجموعة معينة -وفي هذه الحالة هم الفلسطينيون في الأردن- بتحديد ارتباطها مع مجموعات مختلفة، ومن الطبيعي الابتداء بأكبر مجموعة تتقاطع بدهياً معنا.

أخيراً وليس آخراً عندما أخاطب الفلسطيني بشكل مباشر وعندما أشير إلى تهتك الروابط بينه وبين غيره قد يتسرع البعض ويتهم الطرح بأنه "انعزالي" -مع أن هذه الكلمة لا يجوز إسقاطها على الحالة الفلسطينية إلا مع عمى الأنوان- أو يشير إلى ضعف الفلسطيني لو تصرف كأنه مجموعة مستقلة، وهذا أيضاً رد قشي لأنني لأ أقول أن الفلسطيني عليه التحرك كأنه معلق في الهواء ولا يرتبط بأي مجموعة ثانية. هذه التهم باطلة وجاهلة لأن التاريخ القديم والمعاصر هو عبارة عن ملحمة لمجموعات تتفاعل وتتحالف وتتحارب، وتنصهر في بعضها وتتمايز عن بعضها. لذا لا يعقل أن يؤخذ كلامي كأنه يرجو من الفلسطيني أن يتصرف كأن لديه قدرات خارقة تغنيه عن الديناميكية البشرية الطبيعية، بالعكس، على الرغم من مرارة الأحداث إلا أن الكثيرين من الأحرار في مجموعات بشرية شتى في كل العالم أثبتوا أنهم لم يتخلوا عن إنسانيتهم وأخلاقياتهم، وأنهم أهل للتحالف والتعاون، بل وأن مصالحهم المباشرة تحت التهديد بالمعية. كل ما في الأمر هو أن الفلسطيني في بوز المدفع وعليه أن يفكر بقضيته بشكل مختلف كي يتحرك بما يتناسب مع هذا الموقع الذي لا يحسد عليه، وأن الروابط التي صارت أشبه بالقيود والتي يتعامل أصحابها مع الفلسطيني باستحقار وتمنن تتطلب تمزيقاً من أجل توثيق الروابط الجديدة مع كل الأحرار، ولذلك يجب إعادة النظر في كل اعتبار.

---

[1] من المثير للاهتمام هو أن بعض الناشطين البينيين أو المفكرين المتطرفين في ذلك المجال لا يمتنعون عن الثناء على "المتطرفين" المسلمين، بينتي لينكولا "الفاشي البيئي" يَصِف تفجيرات سيتمبر بأنها صراع بين من يعبد الله ومن يعبد الدولار، وفي مواجهة كهذه على البيئي أن يكون في خندق من يعبد الله، ألا يعني ذلك أن المتطرف الإسلامي يمكنه التفكير ملياً بالتعاون مع المتطرف البيئي لإسقاط النظام العالمي الذي يسحق أهم قيمٍ عندهما؟